قصـة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الدفتريا

بين واضع سمها الفرنسي ، وكاشف ترياقها الألماني

وصل القارئ : بعد أن أثبت بارنج أن المصل المأخوذ من دم الشياه الناقهة من الدفتريا يقى الحيوانات من هذا الداء إذا هو حقن فيها ، حقنه فى الحيوانات المريضة فعلا لعله يشفيها فشفاها . ففعل مثل ذلك فى الأطفال المرضى فكان النجاح باهراً . وبدأت المصانع تصنع هذا المصل والأطباء يستخدمونه وذاع أمره واهتز الناس له

— ٤ —

ومع هذا النجاح فقد صدرت من الناس شكيَّات ، وقد صدرت منهم انتقادات . وهذا أمر طبيعى ، فالعلاج الجديد لم تكن مؤكدة نتائجه كل التأكيد . فهو لم يَشْفِ من الأطفال المائة مائةً عدًّا . وكيف يُرجى منه ذلك وهو لم يكن شفى من مائة الخنازير الغينية مائة كاملة ! وكان كذلك لبعض علماء الأطباء رأى نقّاد فيه ، فقد ذكروا أن الذى يحدث من الداء تحت جلد الخنزير ليس بحكم الضرورة واللزوم هو عينه الذى يحدث منه فى حلوق الأطفال . وشاع أمر الحقنة ، وجرى المصل فى دماء الألوف من الأطفال ، ولكن برغم ذلك مات بعض الأطفال من الداء شرّ ميتة . (ولو أن عددهم ربما كان دون الذى كان يموت قبلا) . وأخذ الأطباء يتساءلون عن السبب . وفقدت آباء وأمهات آمالاً كبيرة تفتّتت بفقدها أكبادهم

وهنا عاد أميل رو إلى العمل ، عاد إلى ساحة القتال يحتل مكانه فى صدرها . فاكتشف اكتشافاً مجيداً : طريقة سهلة هينة يحصّن بها الخيل من سمّ الدفتريا ؛ طريقةً لا يموت فيها حصان ولا يطفح على جلده منها خُـرَّاجات أليمة ذميمة ؛ وخيرٌ من هذا أنها طريقة تأتى بالكثير الوفير من ذلك المصل الحصين وبه ذلك الترياق الغالى الثمين . وكان مصلاً قوىَّ المفعول يذهب القليل منه بالسم الكثير الذى يقتل عدّة من كلاب كبيرة

وآمن رو بأن هذا الترياق سيشفى الأطفال لا محالة . وآمن به قبل أن يجهزه إيماناً كإيمان بارنج أو أشدّ منه تأكداً . تركّز فكره على علاج الداء ، واجتمع مقصده على شفائه ، فلم يفكر قط فى منعه . ونسى ما كان وَصفَ من غرغرات . وظل يتردد على عجل بين معمله ومَربِط خيله ، تارة ضارباً محاقنه فى أعناقها وهى صابرة ، وتارة حاملاً قوارير عظيمة البطون ملأى من دمائها

وفى هذه الفترة كان نوع من الدفتريا شديد الخبث (هكذا ظن رو) يكتسح بيوت باريس . وفى « مستشفى الأطفال » كان يُحمل خمسون فى المائة من مرضاه إلى بهو الأموات زُرْق الوجوه (أو هكذا أثبت الاحصاء) . وفى مستشفى تروسو Trousean كان يموت ستون فى المائة (ولو أن السجلات لم تذكر فى جلاء أن الأطباء استيقنوا أن الذين ماتوا إنما ماتوا من الدفتريا لا من غيرها) . وفى الأول من فبراير عام ١٨٩٤ جاء رو إلى « مستشفى الأطفال » بوجهه المسنوف وأنفه الأقنى وصدره الضيّق وقلنسوته السوداء ، فدخل إلى رواق الأطفال المرضى بالدفتريا وهو يحمل قوارير ملأى بهذا السائل الأصفر المعجز من المصل

وفى هذه الساعة ، فى المعهد الشهير بشارع ديتو ، فى حجرة المكتب هنالك كان يجلس رجل شيخ مشلول ينتظر خبراً ساراً يأتيه من رو . . . . وكان هذا الشيخ تبرق فى عينيه بوارق الأمل فينسى أحبابه وأعزاؤه أن الموت انتقاه وأعلمه ثم تركه وعن قريب يعود فى طلب المتروك تاركه . . . . . هذا بستور جلس فى غرفة مكتبه من ذلك البيت العتيق لا يود أن يبرحها ويُسْلِم للفناء زمامه حتى يأتيه الخبر اليقين بأن تلميذاً من تلاميذه تمكن من محو داء آخر من الأدواء الخبيثة بهذه الحياة الدنيا

وغير بستور كان حول رو أمهات باريس وآباؤها يرجونه الاسراع فى تجهيز علاجه رحمة بأولادهم من مرضى ومريضات — فقد كانوا سمعوا بذلك العلاج العجيب الذى ابتدعه الدكتور بارنج . وقالت طائفة منهم أنه يكاد يحيي الموتى ويستخلص

الأطفال من براثن هذا الداء بعد أن تنقطع فيهم الآمال . وكان رو يتلفت حوله فيستطيع أن يرى الناس رافعة أيديها إليه تطلب الرحمة والغياث

جهّز رو محاقنه وقواريره بذلك الهدوء وذلك البرود اللذان أثارا اعجاب الفلاحين فى تلك الأيام الخوالى حين قام رو فى حقولهم يضرب لقاح الجمرة فى بهائمهم فى قرية بويبى لوفرت . وقام عوناه مرتان Martin وكايو Chaillou فأشعلا مصباح الكحول وأسرعا اليه فى لهف وتأهب لاجابة الأمر تنفتح عنه شفتاه ، ونظر كوخ إلى الأطباء وهم فى حَيْصَ بيص لايدرون ماذا يصنعون . ونظر إلى الوجوه الصغيرة وهى فى زرقة الرصاص ، وإلى الأيدى الرقيقة وهى تُهبّش فى ألحفة الصوف ، وإلى الأجسام وهى تتلوّى فى الفراش تطلب أنفاساً قليلة من ذلك الهواء الغالى فلا تكاد تجدها . ثم نظر إلى محاقنه ممعناً وسأل نفسه : أحقاً فى هذا المصل خلاص هذه الأرواح ؟ فما أسرع ما انشطرت نفسه شطرين عند هذا السؤال ، فكان منها نفسان : النفس الأولى نفس الانسان الحنّان ، والنفس الأخرى نفس العالم البحاث

قالت الأولى تجيبه بقوة : « نعم ، نعم فيه خلاصها »

وقالت الثانية فى همس وخفوت : « لا أدرى ، والحكم للتجربة ، فهيّا بنا اليها »

قالت النفس الحنون ، وقال معها الآباء القانطون وكلهم يتوسلون ويرجون : « لا تفعل ! لا تفعل ! فان التجربة تقضى باعطاء المصل لبعض الأطفال وحبسه عن بعضهم ، وهذا فى شرعة القلب حرام »

قالت النفس الباحثة : « نعم إنه عمل غير هيّن وقساوة تتلزع منها القلوب . ولكن ما الذى أنا صانعته ؟ ! إن هذا المصل شفى الأرانب فما الذى يدرينى أنه يشفى الأطفال والانسان ؟ لا بد إذن من العلم ، لا بد من كشف الحقيقة ، والحقيقة لا تكشف إلا إذا نحن حقنا به نصف الأطفال المرضى وأعفينا النصف الآخر ، ثم قارنا عدد من يموت فى النصف الأول بعدد من يموت فى النصف الثانى ؟ بهذا ، وبهذا وحده ، نستطيع أن نعلم الأثر الحق الذى للمصل فى شفاء هذا الداء »

قالت النفس الحنون : « ولكن هب أنك وجدت المصل يشفى ، فانظر ما تكون مسؤوليتك عن مئات الأطفال الذين يموتون لأنك حبست عنهم هذا المصل ، هذا الترياق »

إنه تخيير مؤلم لاشك بين خطّتين صعبتين . على أن رو ذا العقل الصرف فاتته حجة ما كان أولاه بإيرادها فى هذه المناظرة بينه وبين رو ذو العاطفة الصرف ؛ لقد كان فى استطاعته أن يقول : « إننا إذا لم نتبع طريقة العلم ، طريقة التجربة ، إذاً لانخدع الناس فظنوا أنهم وقعوا من هذا المصل على علاج كامل للدفتريا ، وإذن لكفّ البُحّاث عن طلب علاج جديد لها ، ثم تتوالى السنون بموت ألوف من الأطفال بسبب هذا العلاج المزعوم ، ألوف كان فى الامكان اعفاؤها من الموت لو أننا اتبعنا طريقة البحث الصحيح على ما بها من قساوة . . . »

إن فى هذه الحجة جواب العلم الدامغ لكل ذى رأى يقوده قلب . ولكن رو لم يُصخ إليها ، ومن ذا الذى يلوم هذا القلب أن يتنكّب الطريق القاسية التى تؤدى وحدها الى علم الحقيقة .

وتجهّزت المحاقن ، وجرى مصلها اندفاعا تحت جلود الأطفال فانتفخت به ، بدأ رو فى أداء رسالة الرحمة ، ولعلها رسالة الخلاص كذلك ، لحقن فى المستشفى فى الخمسة الأشهر التالية من الأطفال المهدّدين بالموت زيادة على ٣٠٠ طفل . ثم ظهرت النتائج! ألا حمداً لله فقد كانت نصراً لرو ذى القلب الانسانى الرحيم ، فما انتهت تجاربه فى هذا الصيف حتى قام فى مؤتمر جمع نوابغ الأطباء وخيرة العلماء من أصقاع الدنيا فقال لهم : « إن حالة الأطفال إذا حُقنوا بالمصل تتحسن سريعاً . . . فلا يكاد يقع الناظر فى عنابر المستشفى على وجه فاقد اللون أزرق كالرصاص . . . بل على النقيض يجد الأطفال فى نشاط وابتهاج »

واستمر يصف فى بودابست للمؤتمرين كيف يذهب المصل بهذا الغشاء المخاطىّ الرمادىّ الذى يتكون فى حلوق الأطفال وعليه تتكاثر بشلة الداء ومن فوق بساطه ترمى بسمها القاتل ، ووصف لهم كيف يذهب هذا المصل بحُمّاهم كذلك : كان كنسمة باردة هبّت من بحيرة شمالية على مدينة جنوبية فمرّت على أفاريزها وهى تتقد ناراً . فهتف له هذا المؤتمر الوقور ، وقام له أطباؤه الأشهرون على أرجلهم إكباراً له وإعجاباً بالذى أتاه

ومع هذا — ومع كل هذا — وبرغم هذا المصل العجيب .

فقد مات من مرضى رو ستة وعشرون فى كل مائة ! !

ولكن اعلمْ أن ذلك العصر كان عصراً تغلب فيه العاطفة ، واذكرْ أن هذا المؤتمر لم يجتمع ، ورو لم يذهب إليه ، لخدمة الحقيقة وإنما ليحتفلوا بخلاص الأرواح وليناقشوه ويختطوا له الخطط ، وكان الناس عندئذ قليلى الاهتمام بالأرقام ، وكانوا أقل اهتماماً بالنُّقَّاد الثقلاء الذين يُلحون فى طلب مقارنتها ، وكانوا فى تأثر شديد عند ما استمعوا لرو وهو يصف لهم ما كان من تبريد المصل لجباه الأطفال بعد اشتعالها . على أن رو كان فى مقدوره الرد على نقّاده بين تصفيق العظماء النابهين من سُماعه بأن يقول لهم : « وماستة وعشرون يموتون فى المائة ! يجب أن تذكروا أنه قبل هذا العلاج كان يموت خمسون فى المائة »

ومع هذا أيضاً فأنا أقول — أنا الذى أودّ أن أومن بهذا الترياق وبحسن أثره فى علاج الدفتريا — أقول بعد أن مضى على ذلك الزمان بضعة عقود : إن الدفتريا داء غريب ، يزيد خبثه أحياناً ، ويقل أحياناً . ففى بعض الأحقاب يبلغ الموت فى مرضاه ستين فى المائة ، ثم هو يحل به أمر خفىّ غريب يُضعف من مكروبه فاذا بالستين تنزل إلى عشرة ، وهكذا كان الحال فى عصر البطولة الفائتة ، عصر رو وبارنج . ففى هذا العصر فى بعض مستشفيات انجلترا نزل معدَّل الموت من أربعين إلى اثنين وعشرين فى المائة — وهذا بالتحقيق قبل أن يُستخدم المصل !

ولكن الأطباء الكبراء لم يأذنوا للأرقام أن تدخل فى تفكيرهم ، وحملوا خبر الترياق إلى أركان الأرض الأربعة ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى استقر المصل فى الأدوية علاجاً للدفتريا . واليوم لن تجد طبيباً فى الألف لا يحلف لك بأنه علاج بديع . والدفتريا اليوم ليست على خبثها الذى كان لها فى العقد التاسع من القرن الماضى ، والأطباء لا يفتأون يعطون المصل لكل طفل تناله تلك البشلات الفاترة الجارية الآن حاسبين أن به الشفاء...

والطبيب الذى يمتنع عن إعطاء المصل يُعَدّ بحق مذنباً اعتماداً على القدر الذى نعلم من أمر هذا العلاج اليوم . وأنا نفسى لو أن طفلاً لى أصابه هذا الداء لكنت أول مسرع إلى الطبيب ليحقنه بهذه الحقنة نفسها . ولم لا ؟ فلعل المصل يشفى حقاً . أنا لا أدرى أنه لا يشفى ، ولا يدرى غيرى أنه لا يشفى ، وقد فات الأوان لاثبات أنه يشفى أو لا يشفى ، فالدنيا الآن تؤمن به ، فلا يوجد فى الرجال رجل تبلغ به قسوة القلب ، أو جرأة النفس أن يقوم بالتجربة التى يتطلبها العلم لاثبات اليقين

واليوم يؤمن البحاث بالذى آمن به رو من أمر هذا المصل فهم فى شغل شاغل بمباحث أخرى . وكل الذى أرجوه أن يكون رو صادقاً فى الذى آمن به ، حتى إذا هبّت على العالم هبّة من وافدة خبيثة من الدفتريا ، وافدة فى خبث تلك التى كانت فى العقد التاسع من القرن الماضى ، يكون للناس من هذا المصل وقاء صادق يدفعون به شرها غير مخدوعين فيه

على أنه حتى إذا لم يكن فى هذا المصل شفاء الدفتريا — ولو أن الأرجح فيه الشفاء — فالتجارب التى قام بها رو وبارنج لم تضع سدى على ما نعلم اليوم . بالطبع قصة ذلك لا تزال حديثة لا تزال تلوكها الجرائد كثيراً ، فلم تتهيأ بعد لتبوىء مكانها فى التاريخ ولكن مع هذا ففى نيويورك ، وفى كل أمريكا ، وفى ألمانيا مئات الألوف من الأطفال وتلاميذ المدارس تتخذ أجسامهم مصانع يُصنع فيها هذا الترياق فى حذق كبير وأمن بالغ كى لا تأتيهم الدفتريا أبدا . وذلك بحقن هؤلاء الصغار تحت جلودهم بمقادير قليلة من سمها يكفى القدار منها لقتل عدة كلاب كبيرة — ولكن بعد تدويره وتحويره وتغييره تغييرا عجيبا حتى لا يتأذى منه الطفل يُحقن به بعد أسبوع من ولادته

والأمل اليوم كبير فى مغالبة الدفتريا حتى لا يكون منها ذلك الداء الفتّاك الذى دوّخ الأجيال ، وذلك بأن تقتنع الأمهات والآباء فيرضون بأن تُرشق بناتهم وأبناؤهم ثلاث رشقات من من إبرة محقن . إذن لحمدنا العاقبة وشكرنا للفلار ورو وبارنج أبحاثهم الأولى وإن فاتها التهذيب والتمام

(تمت الدفتريا)

أحمد زكى

الإيحاء
فن الحياة ومفتاح السعادة
(٥ والبريد ١)
التنويم المغنطيسى (بالصور) ١٠ والبريد ٢
قراءة الأفكار وعلوم نفسية ٥ " ١
موجز التنويم بالصور عشرة مليمات
للأستاذ وليم نسر جيوس المحامى بمصر
شارع الترعة البولاقية رقم ١٥٦ بالسبتية